الباب السابع

في الجود والسخاء

كرم خليل الرحمن:

وهذا أبونا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وقصة كرمه مع الملائكة، ومما يحكى أن النبي إبراهيم عليه السلام، ما كان يحب أن يأكل طعاماً منفرداً، فإذا حضر طعامه بحث عن ضيف يأكل معه، وقد جاء القرآن الكريم منوِّهاً بكرم النبي إبراهيم عليه السلام.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [سورة الحجر: ٥١-٥٣].

وجاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝﴾ [سورة هود: ٦٩-٧٠].

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام يعيش في أرض الكلدا نيين مسقط رأسه، ووطن أهله ـ العراق ـ فهاجر من العراق إلى أرض كنعان في البادية مارًّا بالأردن، وكان عادة البدو في إكرام الضيف ، فما إن وصل إليه الأضياف حتى أسرع إلى إحضار الطعام، وقد كان يظن أنهم ضيوف من البشر، فما لبث أن جاء بعجل سمين مشوي على حجارة الرضيف المحماة.

وبما أن الملائكة لا يأكلون الطعام، لم تمتد إلى الطعام أيديهم، والنبي إبراهيم ينظر إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام أنكر موقفهم ذلك والمعروف عن الضيف أنه إذا كان ينوي شرًّا لا يأكل مما يقدم إليه من الطعام، لذلك خاف النبي إبراهيم من الضيوف.

فالذي لا يأكل الطعام يريب المضيف،ويشعر بأنه ينوي خيانة أو شرًّا أوغدراً بحسب تقاليد أهل البادية، فلما أدرك الملائكة خوف إبراهيم من امتناعهم عن الأكل طمأنوه بعدم الخوف منهم، وأنهم رسل الله أرسلهم إلى النبي لوط عليه السلام، وأنهم مأمورون بإهلاك قوم لوط المجرمين.

وزادوه اطمئناناً بالبشرى التي حملوها إليه، إذ بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فلما اطمأنّ النبي إبراهيم عليه السلام إلى رسل الله، وسكن قلبه بالبشرى بالغلام العليم، ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه، وهو ابن أخيه النازح إليه معه، من مسقط رأسه والساكن قريباً منه.

وفي سورة الذاريات، يبدو كرم النبي إبراهيم عليه السلام، وسخاؤه وإرخاصه المال واضحاً، فما يكاد ضيفه يدخل عليه ويقول: سلاماً ويرد إبراهيم السلام على الضيف حتى يذهب إلى أهله مسرعاً ليهيء للضيف الطعام ويجيء به طعاماً وفيراً يكفي لأكثر ممن حضر من الناس.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ [سورة الذاريات: ٢٦]، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال: كان يكفيهم كتف من هذا العجل السمين، فقربه إليهم، فلما رآهم لا تمتد أيديهم إلى الطعام، قال: ألا تأكلون؟ وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه.

كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما أشرقت شمس إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، وإنهما ليعرفان الخلائق، إلا الثقلين الجن والإنس: اللّهم عجِّل لمنفق خلفاً، اللّهم عجِّل لممسك تلفاً، وملكان يناديان: أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: أتى رسول الله ﷺ رجل، فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع الرجل إلى قومه، فقال: اسلموا فإن محمدا يعطي عطاء رجل لا يخاف الفاقة. (الفاقة الفقر والحاجة)، يقال من الفاقة إنه لمفتاق ذو فاقة، وإفتاق الرجل أي إفتقر، ولا يقال: فاق لأن فاق من التفوق لا من الفاقة، والمفتاق المحتاج.

وجاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي قال: إعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة، وعنه عبر الرسول الكريم ﷺ، حيث قال: «**السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة**».

وقال جابر بن عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «**قال جبرائيل عليه السلام: قال الله تعالى: إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولا يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم، وفي رواية: (فأكرموه بهما ما صحبتموه)**.

وقال أبو سعيد الخدري، قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى:أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي، تعيشوا في أكنافهم، فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فإني جعلت فيهم سخطي**».

وروي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى، وقال الشاعر:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية بن أبي سفيان، الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن المروءة، والنجدة والكرم. فقال: أما المروءة فحفظ المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة فالذبّ عن الجار والصبر في المواطن. وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المحل، والرأفة بالسائل مع بذل النائل.

ورفع رجل إلى الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رقعة، فقال له الحسن: حاجتك مقضية، فقيل له: يا ابن بنت رسول الله، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عز وجل من ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته.

وقال ابن السماك عبد الله بن أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة ٤٣٥هـ: قال: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه. سئل أعرابي من سيدك؟ فقال : من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلينا.

وقال علي بن الحسين ابن الإمام علي كرم الله وجهه: من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيًّا، وإنما السخي من يبدأ بحقوق الله تعالى في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تامًّا.

و مما يروى عن جعفر الصادق أنه قال: لا عون أعظم من العقل، ولا معصية أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة، ألا وإن الله عز وجل يقول: إني جواد

كريم لا يجاورني لئيم، واللؤم من الكفر، وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان، وأهل الإيمان في الجنة.

و مما يحكى أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال: من كانت له حاجة إليّ فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة، فجاءه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، وإن الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال له الإمام علي: خطها في الأرض، فكتب: إني فقير؟.

فقال الإمام علي لخادمه قنبر: اكسه حلتي : فقال الأعرابي:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة ولست تبغي بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فلما سمع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ما قال الأعرابي، قال: يا قنبر: زده مائة دينار، فقال قنبر ، يا أمير ا لمؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم، فقال كرم الله وجهه، صه (اسكت)، يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: أشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وقال بعض العرب لولده : يابني لا تزهدن في معروف ، فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً لديه، وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء سائلاً فإنك لا تدري متى أنت راغب

وقال أحد العلماء واصفاً الجود والسخاء والإيثار، فقال: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.

من سخاء سيف الدولة الحمداني:

ومما يحكى عن سخاء أمير المؤمنين سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله الحمداني، قال أبو القاسم بن معروف، قال: دخلت حلب فقصدت أبا محمد الحسن بن محمد الصليحي الكاتب، فوجدت معه أبا الحسن علي بن الحسين المغربي الكاتب أسلم عليهما، وكانا في خدمة سيف الدولة، وقد خصص لهما داراً واحدة لضيق الدور، وكان لكل واحد منهما وكيل يتعاقبان في خدمتهما لكل وكيل يوم.

ولما استقر بي المقام معهما دخل عليهما رجل ضرير، فسلم وجلس ثم قال: إن لي بالأمير سيف الدولة حرمة قديمة، وجواراً واختصاصاً، وذلك أيام مقامه بالموصل، وقد قصدته، ومعي رقعة، فإن رأيتما أن توصلاها إليه، ولكما مني جزيل الشكر، وأخرج الرقعة، فوجداها رقعة عظيمة هائلة مطولة، فلما رأياها قالا له: هذه ورقة عظيمة وطويلة، ولا نظن أن الأمير سيف الدولة يتمكن من قراءتها، ونقترح عليك أن تغيرها وتختصرها، وآرجع بها إلينا بعد اختصارها فإنا سنوصلها إليه.

فقال الرجل الضرير: الذي أحب أن تتفضلا بعرض هذه الرقعة كما هي بدون تغيير أو تبديل أو اختصار، فلما سمعا رأيه اعتذرا أن يستلما منه الرقعة، بدعوى أنها لا تليق أن تقدم للأمير سيف الدولة.

فقال أبو القاسم بن معروف: لما رأيت الرجل الضرير، آيساً منهما يجر رجله خائباً منكسر القلب، فلما رأيته على تلك الحالة أشفقت عليه، فداخلتني عليه رقة ورحمة، فدفعني حاله إلى أخذ الورقة، فذهبت إلى قصر سيف الدولة، وطلبت الإذن بالدخول عليه، وكان رسمه أن لا يدخل عليه أحد إلا برقعة يكتبها الحاجب باسم من حضر سواء الحاضر واحداً أو جماعة، فإذا وصلت الرقعة إلى سيف الدولة قرأ اسم من حضر، فإن شاء دعا به، وإن شاء أمر بصرفه.

فقام الحاجب بما يجب، وعرض الرقعة على سيف الدولة، وفيها، من فلان بن فلان الفلاني الموصلي الضرير، فلما قرأها أمير المؤمنين سيف الدولة قال: وهذا لا زال يعيش؟ أين هو؟، فقال الحاجب: هو بالباب واقف ينتظر الإذن.

فقال أمير المؤمنين سيف الدولة: دعه يدخل، فما أظنه ـ مع ما أعرفه من زهد في الطلب ـ قصدنا إلا لجهد لحق به، فدخل الشيخ على الأمير سيف الدولة فسلم

واستدناه وقربه، وبش به وقال له: يا هذا ما سمعت بأنا في الدنيا؟ أما علمت مكاننا على وجه الأرض؟ أما كان من ا لواجب أن تزورنا ، مع ما بيننا من الحرمة الأكيدة، والسبب الوكيد؟، لقد أسأت إلى نفسك ، وأسأت الظن بنا.

فجعل الرجل الضرير يدعو لأمير المؤمنين سيف الدولة ويشكره، ويعتذر إليه لعدم زيارته، فقربه وأجلسه بجانبه، وأخذ سيف الدولة يدعو رجاله واحداً بعد واحدويسر إليه بكلام لا يسمعه الضرير، ولا يعلم بشيء مما يدور من حديث بين الأمير سيف الدولة ورجاله، ولا يرى الحضور إلا الأشياء يوضع بعضها فوق بعض، وبعضها بجوار بعض، وسكت سيف الدولة عن الكلام مع الرجل الضرير، وظن الضرير أن أمير المؤمنين سيف الدولة قد تغافل عنه وأهمل طلبته.

وأحضرت صرر الدراهم والدنانير، والأثواب المتنوعة ، والفرش، وجاء رجل ومعه بغلة ،تساوي ثلاثة آلاف درهم، وجاء خادم بثياب جديدة ،وسلمت البغلة إليه ، فأمسكها في الميدان أسفل الدكة التي عليها أمير المؤمنين سيف الدولة، ثم قال للخادم: كم جرايتك؟.

فقال الخادم: عشرون ديناراً في الشهر، قال الأمير سيف الدولة: قد جعلتها لك ثلاثين ديناراً، وخدمتك لهذا الشيخ خدمة لنا، فلا تقصر فيها، ولاينكسر قلبك، وأحسن خدمته، وقد أمرت بأن يدفع جرايتك لسنة كاملة مقدماً، فدفعت في الحال إليه.

ثم قال الأمير سيف الدولة: فرغوا الدارالفلانية للرجل الضرير ففرغت، وزودت بما يحتاج إليه كل ذلك من أجل الشيخ الضرير، وهو لايعلم ما يقوم به أمير المؤمنين سيف الدولة من أجله.

ثم أمر أبا إسحاق بن شرام المعروف بابن ظلوم المغنية، وكان يكتب له، ويترسل في الكتابة إلى ملك الروم، ويبعثه في صغير أموره وكبيرها، أن يأخذ الرجل الضرير إلى الدار، وجعل يخاطبه عن لسان الأمير سيف الدولة، فقال: إن الأمير سيف الدولة، يعتذر إليك، ويقول إنك جئتنا في وقت هو آخر السنة، وقد تقسمت أموالنا الحقوق الكثيرة، والزواروالجيوش، وببابنا رجال كثيرون من الرؤساء وغيرهم، ونحتاج إلى مواساتهم، وتآلفهم بالإحسان إليهم، ولولا ذلك لحققنا لك أملك، فاعذر وسامح،

والعذر عند كرام الناس مأمول، وقد أمرنا لك بكذا وكذا، وقرأ عليه أبو إسحاق بن شهرام ما أمر به الأمير سيف الدولة للرجل، وقائمة المحمول إلى أهله بالموصل، فلم يملك الرجل الضرير بكاءه، ودموعه بعدما سمع قائمة ما تفضَّل به عليه أمير المؤمنين سيف الدولة.

ثم قال الرجل الضرير للأمير سيف الدولة: أيها الأمير قد والله زدت على أملي أضعافاً مضاعفة، ورفعت ذلك درجات، وأوفيت على غناي طبقات، وقضيت حقي وما هو أعظم من حقي، ولقد أعطيت على قدرك العالي العظيم، ولو أعطيتني على قدري لكان عشر معشار ما أمرت به، ولكان كافياً ولمنزلتي وافياً، وليس بإمكاني أن أقدم شكر ما أوليتني من نعيم، ولكنني أسال الله الذي لا تخفى عليه خافية أن يتولى عني شكرك، ويزدك من واسع فضله فإنه قال وقوله الحق: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

وإنني أرجو أيها الأمير أن تتفضل علي السماح لتقبيل يدك الكريمة، فإن تقبيل يدك أفضل عندي من كل عطية، فأذن له في ذلك، فدنا الرجل من الأمير فقبل يده دفعات والدموع تسيل على خديه بدون انقطاع، فخاف الأمير سيف الدولة على الرجل شفقة عليه، فأخذه سيف الدولة إليه، وسارّه بشيء فضحك الرجل الضرير، وقال: أي والله، أي والله أيها الأمير، أمازلت تذكر ذلك أيام كنتم في الموصل؟.

ثم أخذ الرجل إلى الدار التي أعدت له، وقبل انصراف الرجل قال له الأمير سيف الدولة: أقم فيها إلى أن أنظر في أمرك، وتخرج إلى أهلك وعيالك.

وقال أبو إسحاق بن شهرام: والله أيها الأمير،ما سمع بهذا الفعل عن البرامكة ولا غيرها، وقد خشيت على الرجل أن تنشق مرارته بما تفضلتم عليه بعد اليأس وخيبة الأمل فقد كنت عند أبي محمد الصلحي وأبي الحسن المغربي، فجرى كذا وكذا، وقصصت عليه القصة، وخرج الرجل أخزى مخرج، لذلك خفت عليه.

فقال الأمير سيف الدولة: عليّ بالرجلين، فجاء أحدهما قبل الآخر، فسلم وجلس ولم يتكلم بشيء، ولا خاطبه في أمر حتى حضر صاحبه، ثم أقبل عليهما فقال: ويحكما أخبراني ألم أحسن إليكما؟ ألم أكرمكما؟ إذ اصطنعتكما ونوَّهت بكما، وأوفرت أرزاقكما، ورفعت منزلتكما، وخففت الخدمة عليكما، وأسعى بجهدي في قضاء حقوقكما؟.

فأخذا يشكرانه، ويثنيان خيراً، فقال الأمير سيف الدولة: ما أريد هذا إما أن تقولا: نعم أي حصل ذلك أم لم يحصل، فقالا: بلى والله وزيادة.

قال سيف الدولة: أفمن حقي عليكما، ومكافأة ذلك وشكره أن تقطعا عني رجاء الناس فيّ، وتصدانهم عن الأمل، وتؤيسانهم من بري، وتنسباني عندهم إلى التضجر برقاع المؤملين بالخير والإحسان، وتصفاني بالبخل على المستحقين.

أما كان عليكما النصح في الله؟ ولمن أجرى نعمه وإحسانه على من أجرى ذلك على يديه، فماذا عليكما من حرج لو أخذتما رقعة الرجل الضرير الذي توسّم فيكما خيراً مساعدته، فإن أجرى الله له على يدي خيراً كنتما فيَّ شريكين، وإن ضجرت كان الضجر إليّ منسوباً وأنتما بريئان من ذلك،وقد قضيتما حق قصد الرجل لكما، فلا حقه قضيتما، ولا حق الله أديتما، ولا قمتما بحقي في النصح عليكما.

فأقبل الرجلان يعتذران، ويحلفان أنهما ما أرادا إلا خيراً، والتخفيف عن الأمير، وإن له العتبى حتى يرضى، وقد أرادا من الرجل اختصار الرقعة، وما علما أن الرجل خرج آيساً مغموماً، ولوعلما بذلك لقاداه فأخذا الرقعة ليوصلاها إلى الأمير.

ثم أقبل الحاضرون بالثناء على الأمير سيف الدولة، وهم يطلبون العفو عن الرجلين، وإنه لا يوجد على وجه الأرض في زمانك من يعمل مثل عملك في الإحسان والجود والسخاء والكرم، فبارك الله فيك، وأمد في أنفاسك. آمين يا رب العالمين.

من مشاهير الجود والسخاء:

إن الأخلاق الفاضلة والمزايا الكاملة ، من الأخلاق العربية التي خلدت أسماء بعض الذين ضرب بهم المثل، في الجود والكرم، ومن أخلاق الكريم أنه يحب الإيثار على النفس، ويأنف الذل، ويتجافى عن أراذل الأمور وسفاسفها، فتجده عزيز الجانب، ومحبوباً لدي الصغير والكبير، له منزلة رفيعة عالية لدى الخاص والعام.

وفي هذا المجال لمعت أسماء رجال في الجاهلية والإسلام،على مر الشهور والأيام، فصاروا مضرب الأمثال، ففي الجاهلية اشتهر مشاهير من ضرب بهم المثل في الجود والكرم:

حاتم الطائي وهرم بن سنان المري، وكعب بن مامة الإيادي، وعبد الله بن حبيب العنبري، و أوس بن حارثة الطائي، وقتادة بن مسلمة الحنفي،وهاشم بن عبد مناف القرشي، وعبد الله بن جدعان.

وجاء الإسلام مكملاً مكارم الأخلاق، فحثّ المسلمين على أخلاق الجود والكرم، وكان أكرم الناس في الإسلام على الإطلاق، هو رسول الله ﷺ، وكان قدوة عظيمة في الجود والكرم، لأولئك الرجال الذين أثنى عليهم الله في كتابه العزيز، وكان الرسول الكريم ﷺ، أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان المبارك، حين يلقاه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

أثر الجود والكرم في النفوس:

لقد ولع العرب بالسخاء والجود والكرم، وكانوا يتفاخرون بنحر الجمال، للقرى والضيف، وصارت تلك الصفات من الأشياء المألوفة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، وكانوا يعدون كثرة النحر دليلاً على السخاء والكرم، فكان الرجلان في الجاهلية يتباريان في الجود والسخاء، فيعقر هذا من إبله، وهذا من غنمه حتى يعجز صاحبه ،وقد ظهر هذا واضحاً في أشعارهم، فمن ذلك قول زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي الحكيم:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لأولهم يوماً إذا قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... ممردون بهاليل إذا اجتهدوا
لو يعدلون بوزن أو مكايلة ... مالوا برضوى ولم يعل بهم أحد
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما به حسدوا

وقال زهير بن أبي سلمى، يمدح حصن بن حذيفة بن بدر، على كرمه وجوده:

وأبيض فياض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيته ... قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفديه طوراً وطوراً يلمنه ... وأعيا فما يدرين أين مخائله
فأقصرن منه عن كريم مرزءٍ ... عزوم على الأمر الذي هو فاعله

أخي ثـقـة لا تتلف الخمر مالـه ولكـنه قـد يهلك المـال نائـلـه
تـراه إذا مـا جئتـه متهـلـلا كأنك تعطيه الذي أنـت سـائلـه
حذيـفـة ينميه وبـدر كـلاهما إلى باذخ يعلـو على من يطاوله
ومن مثل حصن في الحروب ومثله لإنكـار ضيـم أو لأمـر يحاولـه
بـالضيم والنعمان يحترق نـابـه عليه فأفضى والسيوف معاقلـه
عزيز إذا حـل الحليفان حـولـه بـذي لجـب لجـاته وصـواهله

ذلك قول زهير بن أبي سلمى في وصفه لحصن بن حذيفة بن بدر، وقد وَفَى وصفه ،والمشهور عن زهير أنه لا يصف من وصف من الرجال إلا بما يتصف به من الصفات، ولا يعارض في الكلام، لذلك قدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ على سائر شعراء الجاهلية.

وهذا صناجة العرب، الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام ولم يسلم، إذا أغراه زعماء قريش بالمال، وصدوه عن سبيل الإسلام، بدعوى أن الإسلام يحرم الخمر،وكان قد أعد قصيدة في مدح الرسول ﷺ وكرمه وإليك بعض الأبيات من القصيدة التي مدح بها الرسول:

ومـا زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المرا قيـل تغتـلي مسافة ما بين النجير فصـرخـدا
فإن تسألي عني فيـا رب سـائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
ألا أيّهـذا السائلي أيـن يمـمت فإن لها في أهـل يثرب مـوعـدا
فآليت لا أرثي لها من كـلالـة ولا من حفى حتى تزور محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تريحي وتلقي من فواضله يـدا
نـبي يـرى مـا لا تـرون وذكـره أغـار لعمري في البلاد وانجـدا
لـه صـدقات ما تغـب ونـائـل وليس عطاء اليوم مـانعـه غـدا
أجـدك لـم تسمع وصـاة محمد نبي الإله حين أوصى وأشهـدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
نـدمت على أن لا يكـون كـمثله وأنك لم ترصـد لمـا كان أرصـدا

فإياك والميتات لا تأكلنها ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وصلي على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا السائل المحروم لا تتركنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة ولا تحسبن المرء يوماً مخلدا
ولا تقربن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

إن من يطالع قصيدة صناجة العرب، هذه أعشى بني قيس ميمون بن قيس بن جندل، يظهر له أن الشاعر كان يعلم ما يدعو إليه الإسلام، من مكارم الأخلاق، إذ ذكر بعض ما يحثّ عليه الإسلام من التزود بزاد التقوى، يندم يوم لا ينفع الندم، وذكر ما يدعو إليه الإسلام، من أن أكل لحم الميتة حرام، وأكل الدم حرام، وما نحر على النصب حرام، وعبادة الأوثان حرام، وحثّ على الصلوات وحذر من عبادة الشيطان، ورد السائل المحروم حرام، واحتقار الضعيف حرام، والزنا حرام وشرب الخمر حرام، كل ذلك ذكره الشاعر في القصيدة التي ذكرنا منها بعض الأبيات، ورغم ذلك مات كافراً.

أزواد الركب:

وكان بعض الرجال يسمون أزواد الركب، فإذا سافر أحدهم حمل زاده وزاد من يرافقه، أو ألم به وهو مسافر لا يرضى أن يأخذ من يصحبه أو يرافقه زاداً، فهو مكفول الزاد، منذ خروجه من بلده حتى يرجع إليها.

ومن هؤلاء أزواد الركب: مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس، واسمه: ذكوان، وهو شاعر من سادات قريش، وأجوادهم في الجاهلية، مات قبل الهجرة النبوية بعشر سنوات، ومنهم زمعة بن الأسود، ومنهم أبو أمية بن المغيرة، وكلهم من قريش.

كرم قيس بن عاصم المنقري:

ويحكى عن كرم قيس بن عاصم المنقري التميمي، أنه تزوج منفوسة بنت زيد الفوارس الضبي ، فأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام، فقال لها: فأين أكيلي؟ فلم تعلم ولم تفهم ما يريد، فأنشأ يقول:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ... ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فإنني ... أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف من غير ذلة ... وما بي إلا تلك من شيم العبد

قال: فأرسلت جارية لها مليحة، فطلبت له أكيلاً، وأنشأت تقول:

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه ... بغير أكيل إنه لكريم
فبوركت حقاً يا أخا الجود والندى ... وبوركت ميتاً قد حوتك رجوم

ويروى أن رجلاً من بني القين من قضاعة،جاور قيس بن عاصم المنقري التميمي، فأحسن جواره، ولم ير منه إلا خيراً حتى فارقه، ثم نزل عند جوين الطائي أبي عامر بن جوين ، فوثب عليه رجال من طي فقتلوه وأخذوا ماله ، فقال العباس بن مرداس السلمي يهجوهم ، ويمدح قيس بن عاصم :

لعمري لقد أوفى الجواد ابن عاصم ... وأحصن جاراً يوم يحدج بكره
أقام عزيزاً منتدى القوم عنده ... فلم ير سوءات ولم يخش غدره
أقام بسعد يشرب الماء آمنا ... ويأكل وسطاها ويربض حجره
فإنك إذ بادلت قيس بن عاصم ... جوينا لمختار المنازل شره
فأصبح يحدو رحله بمفازة ... وماذا عدا جاراً كريماً وأسره
يظل بأرض الغدر يأكل عهده ... جوين وشمخ خار بين بوجره
يذمان بالأزواد والزاد محرم ... سروقان من عرق شروراً وفجره

والشاعر العباس بن مرداس السلمي، شاعر فارس من سادات قومه، وأمه تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد (الخنساء) الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام،

فهو من المخضرمين، أسلم قبيل فتح مكة المكرمة، وكان من المؤلَّفة قلوبهم، يدعى فارس العبيد ـ بالتصغير ـ فرسه، توفي في العام الثامن عشر من الهجرة النبوية.

كرم الشاعر لبيد العامري:

لبيد بن ربيعة بن مالك العامري أبو عقيل، أحد الشعراء البارزين الفرسان الشجعان، الأشراف الأجواد في الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام، فوفد على النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة النبوية، فأسلم وحسن إسلامه، وكان من المؤلفة قلوبهم، ولما أسلم ترك الشعر، ويقال إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قال ابن قتيبة: لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو قوله:

ألحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

وقال غيره بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، إلى عامله المغيرة بن شعبة بالكوفة: أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه في الإسلام، فأرسل المغيرة إلى الأغلب بن عمرو بن عبيدة العجلي، وهو كذلك من الشعراء المخضرمين، أسلم فحسن إسلامه، وكان ممن جاهد مع سعد بن أبي وقاص فنزل الكوفة واستشهد في وقعة نهاوند، فقال له المغيرة أنشدني:

فقال له الأغلب العجلي:

لقد طلبت هيّناً موجودا أرجزاً تريد أم قصيدا؟!

ثم أرسل المغيرة بن شعبة إلى لبيد بن ربيعة العامري، فقال له المغيرة: أنشدني، فقال لبيد : إن شئت ما عفي عنه(يعني شعره الذي قاله في الجاهلية) قال له المغيرة: لا، بل ما قلته في الإسلام.

فانطلق لبيد إلى بيته، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها إلى المغيرة ابن شعبة، فقال لبيد: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.

فكتب المغيرة بن شعبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يخبره بخبر لبيد ابن ربيعة، فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، بأن ينقص من عطاء الأغلب العجلي خمسمائة درهم، وتعطى لبيداً، فيكون عطاء لبيد ألفين وخمسمائة، وعطاء الأغلب ألفاً وخمسمائة.

فكتب الأغلب العجلي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: أينقص عطائي إن أطعتك؟ فرد عليه الخمسمائة وأقرَّ لبيداً على الألفين والخمسمائة.

معاوية ينقص من عطاء لبيد:

فلما كان زمن معاوية بن أبي سفيان، وأراد أن يجعل عطايا الناس ألفين قال معاوية للبيد: هذان الفودان (يعني الألفين) فما هذه العلاوة؟.

فقال لبيد لمعاوية: أموت ويبقى الفودان والعلاوة، وإنما أنا هامة اليوم أو غد، فرق له معاوية وترك عطاءه على ما كان عليه أيام عمر بن الخطاب، فمات لبيد، قبل أن يستلم عطاءه، بعد زمن يسير ولم يقبضها.

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد وغيره: أن لبيداً كان شريفاً جواداً شجاعاً في الجاهلية والإسلام، وكان نذر أن لا تهب الصَّبَا إلا نحر وأطعم،وأن الصَّبَا هبّت يوماً، وهو بالكوفة مقتر مملق فقير لا يملك شيئاً.

موقف الوليد من لبيد:

فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أميراً عليها لعثمان بن عفان، فخطب الناس، فقال: إنكم قد عرفتم نذر أبي عقيل، يقصد لبيد بن ربيعة، وما أخذ به نفسه من النذر، فأعينوا أخاكم لبيداً ثم نزل، فبعث إليه بمائة ناقة وأسرع الناس فبعثوا إليه بما تيسر فقضى نذره، وفي خبر آخر فاجتمعت عنده ألف راحلة، وكتب إليه الوليد بن عقبة بالأبيات التالية:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ... إذا هبت رياح أبي عقيل
أغرّ الوجه أبيض عامري ... طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفري بحلفتيه ... على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه ... ذيول صبا تجاوب بالأصيل

فقال لبيد بن ربيعة لابنته: أجيبيه، فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر، فأنشدت ابنته تقول فأحسنت القول وأجادت:

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشمياً أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد وظني بابن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها لبيد بن ربيعة: لقد أحسنت لولا أنك استزدته، فقالت : والله ما استزدته إلا لأنه ملك ، ولو كان سوقة لم أفعل.

وقالت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: رحم الله لبيداً حيث يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

ولبيد بن ربيعة العامري، يعد من الصحابة ﷺ، ويعد من المعمِّرين قيل إنه عاش عشرين ومائة عام نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام ، مثل شاعر الرسول حسان بن ثابت الأنصاري.

كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة :

لقد كان من نِعَمِ الله على لبيد بن ربيعة العامري، لمَّا أكرمه الله بنور الإيمان، وجه همه إلى كتابِ الله فقال:

ألحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى كساني من الإسلام سربالا

ولما حضرت الوفاة لبيد بن ربيعة قال لابنه : أي بني إن أباك لم يمت، ولكن توفي (أي إن أباك قبضت روحه ، ولم يمت ذكره).

فإذا قبض أبوك فأغمضه ، واستقبل له القبلة، وسجّه بثوبه، ولا تصح عليّ صائحة ولا تبك عليَّ باكية، وانظر جفنتي التي كنت أصنعها فأجد صنعتها ثم احملها إلى

مسجدك لمن كان يغشاني عليها، فإذا سلم الإمام من الصلاة فقدمها للمصلين، فإذا فرغوا من الطعام فقل لهم: احضروا جنازة أخيكم لبيد ثم أنشأ يقول:

فإذا دفنت أباك فاجعل فوقه خشباً وطينا
وصفائحاً صمّاً رواسبها يسددن الغضونا
ليقين حرّ الوجه سفساف التراب ولن يقينا

ومن شعر زهير في المدح:

وقال الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى، الذي مدح هرم بن سنان، والحارث بن عوف:

وأبيض فياض يداه غمامة على معتفيه ما تغبّ نوافله
يُفَذِّيهِ طوراً وطوراً يلمنه وأعيا فما يدرين أين مخاتله
أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت نائله
ترى الجند والأعراب يغشون بابه كما وردت ماء الكُلاب هوامله
إذا ما أتوا أبوابه قال مرحباً لجُوا الباب حتى يأتيَ الجوع قاتله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتقِ الله سائله

وضرب المثل بكرم حاتم الطائي:

وهذا حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني أبو عدي وأبو سفانة، الذي يضرب به المثل في الجود والكرم، قيل توفي في السنة الثامنة بعد مولد الرسول محمد ﷺ، وقد أدركت سفانة وعدي الإسلام فأسلما، وكانت سفانة أوتي بها الرسول ﷺ ضمن أسارى طيء، فمنّ عليها الرسول وأنعم وشجعت سفانة أخاها عديًّا للإسلام، لما رأت من نبل أخلاق الرسول وكرمه.

وعن كميل بن زياد النخعي، عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا سبحان الله: ما أزهد كثيراً من الناس في الخير، عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كنا لا نرجو جنة، ولا نخاف ناراً، ولا ننتظر ثواباً، ولا نخشى عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة**».

ومن جـود وكـرم حاتم :

فقام رجـل فقال: فـداك أبي وأمي يا أمـير المؤمنين:أَسَمِعْتُهُ من رسـول الله ﷺ، قال: نعـم، وما هـو خير منه، لما أتينا بسـبايا طيء كانت في النساء سفانة بنت حاتم الطائي، فـلما تكلمت أعـجبت بفصاحتها فقالت:

يا محمد هـلك الـوالـد، وغـاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عـني فـلا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومه، وفي رواية، فإني بنت سيد قـومي، كان أبي يفـك العاني، ويحمي الـذمار، ويقـري الضيف، ويشبع الجائع، ويفـرج عن المكروب، ويطعـم الطعام، ويفـشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي.

فقال لها الرسـول ﷺ: «**يا جارية هـذه صفة المـؤمن، لو كان أبوك إسـلاميّاً لتـرحمنا عـليه، خـلّوا عـنها، فإن أباها كان يحبّ مـكارم الأخـلاق، والله يحبّ مـكارم الأخـلاق**».

ولما بلغ حاتماً قـولُ المتلمس حيث يقـول:

وأعـلم عـلم حـق غـيـر ظـن ... وتقـوى الله مـن خيـر العـتاد
لحفـظ المـال خـير من بـغـاه ... وطـوفي في الـبـلاد بغـير زاد
قـليـل المـال تصلحـه فيبقى ... ولا يبـقى الكثير عـلـى الفساد

قال حاتم : مال قـطع الله لسانه، حـرض الناس عـلى البخـل، أفـلا قال:

فـلا الجـود يفني المال قـبـل فنائـه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فـلا تلتمس رزقاً بعيش مقـتـرٍ ... لكل غـد رزق يعـود جـديد
ألـم تر أن الـرزق غـاد ورائـحٌ ... وأن الـذي يعـطيـك ليس بعيـد

إن لسان حاتم الطائي ينطق بما يجيش في نفسه، من محاسن الأخلاق، ونفس الكريم كريمة، وحسبه ثناء قـول رسـول الله ﷺ: (**يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسـلاميًّا لترحمنا عليه، إرحموا عـزيـز قـوم ذل، خلّـوا عـنها فإن أباها كان يحب مـكارم الأخـلاق، والله يحـب مـكارم الأخـلاق**).

جود وسخاء أم حاتم :

لقد جاء عن جود وسخاء أم حاتم الطائي، ما أخبر به ابن دريد محمد بن الحسن ، قال: اخبرنا الحرمازي عن العباس بن هشام عن أبيه ، قال:

كانت عتبة بنت عفيف، وهي أم حاتم الطائي ذات يسار، وكانت من أسخى الناس وأقراهم للضيف، وكانت لا تطيق شيئا تملكه، فلما رأى إخوتها إتلافها لمالها حجروا عليها، ومنعوها مالها، فمكثت دهراً لا يدفع إليها شيء من مالها حتى ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم ذلك، فأعطوها صر مة من إبلها الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الثلاثين أو إلى الأربعين، وقيل ما بين العشرة إلى الخمسين) لسان العرب الجزء الثاني عشر صفحة ٣٣٤ .

فجاءتها امرأة من هوازن، كانت تأتيها في كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الصرمة فخذيها، فو الله لقد عضني الجوع ما لا أمنع معه سائلاً أبداً ثم أنشأت تقول :

لعمري لقدما عضني الجوع عضة فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليوم أعفني فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فماذا عسا كم أن تقولوا لأختكم سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركي يا ابن أم الطبا ئعا

جود سفانة وكرمها :

وقال ابن الكلبي: وحدثني أبو مسكين قال: كانت سفانة بنت حاتم الطائي من أجود نساء زمانها ، وكان أبوها حاتم يعطيها الصرمة بعد الصرمة من إبله، فتعطيها الناس، فقال لها أبوها يوماً من الأيام: يا بنية، إن القرنين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي وتمسكين، أو أمسك وتعطين أنت، فإنه لا يبقى على هذا شيء.

ومما يروى عن حاتم الطائي أنه كان إذا أهلَّ الشهر الأصم : شهر رجب (وهو من الأشهر الحرم)، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي، إنما سمي شهر رجب بالشهر الأصم، لأنه كان لا يسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقعة سلاح، لأنه من الأشهر الحرم.

من مواقف جود حاتم وسخائه:

كان حاتم الطائي إذا أهلَّ الشهر الأصم، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية، ينحر كل يوم عشراً من الإبل، فأطعم الناس واجتمعوا إليه، فكان ممن يأتيه من الشعراء: الحطيئة وبشر بن أبي حازم.

ويقال إن حاتماً كان منذ نعومة أظفاره يحبّ الجود والكرم، وكان يخرج طعامه، فإن وجد من يأكل معه أكل، وإن لم يجد حزن وطرحه، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له: الحق بالإبل، فخرج إليها ووهب له جارية وفرساً وفلوها، فلما أتى الإبل طفق يبغي الناس فلا يجدهم، ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً.

فبينما هو كذلك إذ أبصر بركب على الطريق، فأتاهم فقالوا: يا فتى هل من قرى؟،فقال حاتم: تسألونني عن القرى وقد ترون الإبل؟. وكان الذي أبصر بهم عبيد ابن الأبرص المتوفى حوالي عام ٢٥ قبل الهجرة النبوية، وبشر بن أبي حازم المتوفى حوالي عام ٢٢قبل الهجرة النبوية، والنابغة الذبياني زياد بن معاوية المتوفى حوالي عام ١٨ قبل الهجرة النبوية، وكانوا يريدون الملك النعمان فنحر لهم ثلاثاً من الإبل.

فقال عبيد بن الأبرص: إنما أردنا القرى اللبن، وكانت تكفينا بكرة واحدة إذا كنت متكلفاً لنا شيئاً، فقال حاتم: قد عرفت، ولكني رأيت وجوها مختلفة، وألوانا متفرقة، فظننت أن البلدان غير واحدة، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه.

فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها، وذكروا فضله، فقال حاتم: أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل عليّ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقتسموها، ففعلوا فأصاب كل رجل منهم تسعة وتسعين بعيراً، وواصلوا سفرهم إلى الملك النعمان.

وإن أبا حاتم سمع بما فعل حاتم، فأتاه فقال له: أين الإبل؟ فقال حاتم: يا أبتِ طوقتك طوق الحمامة مجد الدهر، وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثنى به علينا عوضاً من إبلك.

فلما سمع أبوه ذلك قال: أبإبلي فعلت ذلك؟. قال حاتم : نعم، قال أبوه: والله لا أساكنك أبداً، فخرج أبوه بأهله ، وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوها، فقال

يذكر تحول أبيه :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوا فقه شكلي
وشكليَ شكل لا يقوم لمثله من الناس إلا كل ذي نيقة مثلي
وأجعل مالي دون عرضيَ جنة لنفسي واستغني بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعد بأهله وأفرد ني في الدار ليس معي أهلي
سيكفي ابتنائي المجد سعد بن حشرج وأحمل عنكم كل ما ضاع من ثقل
ولي عند بذل المال في المجد صولة إذا الحرب أبدت عن نواجذها العضل

وغزت فزارة طيئاً وعليهم حصين بن حذيفة، وخرجت طيء في طلب القوم، فلحق حاتم رجلاً من بدر، فطعنه، ثم قال له: إن مر بك أحد فقل له: أنا أسير حاتم، فمر به أبو حنبل فقال: من أنت؟ قال: أنا أسير حاتم، فقال له: إنه يقتلك، فإن زعمت لحاتم، أو لمن سألك أني أسيرك، صرت في يدي خليت سبيلك، فلما رجعوا قال حاتم: يا أبا حنبل: خل أسيري، فقال أبو حنبل: أنا أسرته، فقال حاتم: قد رضيت بقوله، فقال : أسرني أبو حنبل فقال حاتم:

إن أبا الجون لم يك غادراً ألا من بني بدر أتتك الغوائل

ومما يروى من أخبار حاتم الطائي، أن ماوية بنت عفزر كانت ملكة، وكانت لا تتزوج إلا من أرادت، فبعثت غلماناً لها وأمرتهم أن يأتوها بأجمل وأوسم من يجدونه بالحيرة،فجاؤوها بحاتم، فوجد عندها النابغة، ورجلاً من الأنصار من النبيت، فقالت لهم: انقلبوا إلى رحالكم، وليقل كل واحد منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه، فإني أتزوج أكرمكم وأشعركم.

أكرم وأسخى الثلاثة :

فانصرفوا، ونحر كل واحد منهم جزوراً، ولبست ماوية بنت عفزر ثياباً لأمة لها وتبعتهم، فأتت النبيتي فاستطعمته من جزوره، فأطعمها ثيل جمله،أي أردأ شيء في الجمل، فأخذته ، ثم أتت النابغة فاستطعمته، فأطعمها ذنب جزوره، فأخذته،

ثم أتت حاتماً،وقد نصب قدره فاستطعمته، فقال لها:

قفي حتى أعطيك ما تنتفعين به إذا صار إليك، فانتظرت فأطعمها قطعاً من العجز والسنام، ومثلها من المخدش، أي من كاهل البعير، وهو عند الحارك، والحارك أعلى الظهر ثم انصرفت.

وأرسل كل واحد منهم إليها ظهر جمله،وأهدى حاتم إلى جاراتها مثل ما أرسل إليها، ولم يكن يترك جاراته إلا بهدية، وصبحوها فاستنشدتهم فأنشدها النبيتي فقال:

هلّا سألت النبيتيين ما حسبي عند الشتاء إذا ما هبت الريح
ورد جازرهم حرفاً مصرمة في الرأس منها وفي الأضلاع تمليح
وقال رائدهم سيان ما لهم مثلان مثل لمن يرعى وتسريح
إذا اللقاح غدت ملقى أصرتها ولا كريم من الولدان مصبوح

فقالت له: لقد ذكرت مجهدة، ثم استنشدت النابغة فأنشدها يقول:

هلا سألت بني ذبيا ن ما حسبي إذا الدخان تغشى الأشمط البر ما
وهبت الريح من تلقاء ذي أرل تزجي مع الليل من صرادها الصرما
إني أتم أيساري وأمنحهم مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

فلما أنشدها قالت: ما ينفك الناس بخير ما ائتدموا، ثم التفتت إلى حاتم، فقالت: يا أخا طيء أنشدني فأنشدها قوله:

أماوي قد طال التجنب والهجر وقد عذرتني في طلابكم العذر
أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً: حلّ في مالنا النذر
أماوي إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
إذا أنا دلاني الذين أحبهم بملحودة زلج جوانبها غبر
وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم يقولون قد دمّى أنا ملنا الحفر
أماوي إن يصبح صداي بقفرة من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرني وإن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إني رب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر
فإنيَ لا آلو بما لي صنيعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العاني ويؤكل طيباً وما إن تعرته القداح و لا الخمر
ولا أظلم ابن العم إن كان أخوتي شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى وكلاً سقيناه بكأسهما العصر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وما ضر جاراً يا ابْنة القوم فاعلمي يجاورني إلا يكون له ستر
بعينيَ عن جارات قوميَ غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر

فلما فرغ حاتم الطائي من إنشاده، دعت بالغداء، وكانت قد أمرت إماءها أن يقدمن منه إليهم، فنكس النبيتي رأسه والنابغة، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمى بالذي قدم إليهما، وأطعمهما مما قدم إليه، فتسلل النابغة وصاحبه لِواذا، وقالت: إن حاتماً أكرمكم وأشعركم.

فلما خرج النابغة وصاحبه طلبت ماوية من حاتم أن يخلِّي سبيل امرأته فأبى، فزودته وردته، ولما ماتت زوجته خطبها فتزوجها فولدت له عدياً، فأسلم عدي وَحَسُنَ إسلامه، وكان من الأجواد العقلاء، وكان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، وقد أبلى في حروب الردة بلاء حسناً.

هذا الشبل من ذاك الأسد:

وقال ابن الأثير في شأنه: إنه، أي عدي بن حاتم خير مولود في أرض طيء وأعظم بركة عليهم ، وكان إسلامه في العام التاسع للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وشهد عدي بن حاتم فتح العراق، وسكن الكوفة ، وشهد الجمل وصفين والنهروان مع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفقئت عينه يوم صفين ومات بالكوفة عام ٦٨هـ، وعاش أكثر من مائة عام، وروى عنه المحدثون ٦٦ حديثاً.

ويروى أن ركباً من بني أسد بن قيس أقبل يريد النعمان بن المنذر، فلقوا حاتماً، فقالوا له: إنا تركنا قومنا يثنون عليك خيرا،وقد أرسلوا إليك رسولاً برسالة، قال: وما هي؟.

فأنشده الأسديون شعراً لعبيد، ولبشر يمدحانه، وأنشد القيسيون شعراً للنابغة، فلما أنشدوه قالوا: إنا نستحيي أن نسألك شيئاً، وإن لنا لحاجة، قال حاتم: وما هي؟.

حاتم يقدم أعز ما يملك:

قالوا صاحب لنا قد أرجل، فقال حاتم: خذوا فرسي هذه فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها وربطت الجارية فلو الفرس بثوبها، فأفلت فاتبعته الجارية، فقال حاتم: ما تبعكم من شيء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والجارية والفلو.

وإن الركب مرّ في سيره، فورد على أبي حاتم فعرف الفرس والفلو، فقال: ما هذا معكم؟ فقالوا مررنا بغلام كريم فسألناه فأعطى الجسيم، ذلك موقف حاتم الجواد الكريم.

لقد عمل كل ذلك ولا زال حاتم غلاماً، لأن الجود والكرم والسخاء كلها صفات أخلاق عظيمة تجري في جسم حاتم الطائي جريان الدم في العروق.

الطبع يغلب التطبع:

ومما يروى من كرم حاتم وسخائه، أن ماوية كانت عند حاتم زماناً، وإن ابن عم لحاتم كان يقال له مالك قال لها: ما تصنعين بحاتم؟ فو الله لئن وجد شيئا ليتلفنَّه، وإن لم يجد ليتكلفن، وإن مات ليتركن ولده عيالاً على قومك، فقالت ماوية زوجة حاتم: صدقت إنه لكذلك.

وكان النساء ـ أو بعضهن ـ يطلّقن الرجال في الجاهلية ،وكان طلاقهن، إن كنّ في بيت من شعر حوّلن الخباء، فإن كان بابه قبل المشرق حوّلنه قبل المغرب، وإن كان بابه من قبل اليمن حوّلنه قبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلّقته فلم يأتها.

وإن ابن عم حاتم قال لماوية وكانت أجمل نساء زمانها: طلّقي حاتماً وأنا أتزوّجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالاً وأنا أمسك عليك وعلى ولدك، فلم يزل بها حتى طلّقت حاتماً، فأتاها حاتم وقد حوّلت باب الخباء، فلما رآها

حاتم حوّلت باب خبائها قال لولده عدي: يا عدي أما ترى أمك عدى عليها، ودفعت إلى ذلك، فقال عدي بن حاتم: لا أدري غير أنها قد غيرت باب الخباء، وكأنه لم يلحن أي لم يفطن لما قال، فدعاه فهبط به بطن واد، وجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون من قبل، فتوافوا خمسين رجلاً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً، وقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك فقولي له: إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا خمسين رجلاً فأرسل بناب، الناب الناقة المسنة، نقرهم، ولبن نغبطهم، وهو ما يشرب بالعشي، لأن ما يشرب بالصباح يسمى الصبوح، وقالت لجاريتها: انظري جنبه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بليته على زوره وأدخل يده في رأسه فاقفلي ودعيه، والزور أعلى وسط الصدر.

فلما أتت الجارية مالكاً وجدته متوسداً وطباً (الوطب سقاء اللبن) وجمعه أوطب، ووطاب وأوطاب، وجدته متوسدا وطباً من لبن،وتحت بطنه آخر، فأيقظته فأدخل يده في رأسه وضرب بلحيته على زوره، فأبلغته ما أرسلتها به ماوية، وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم.

فقال لها: إقرئي عليها السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً فيه، فما عندي من كبيرة قد تركت العمل، وما كنت لأنحر صفية غزيرة بشحم كلاها، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم، (الصفية الناقة الصغيرة).

فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت منه، وما قال، فقالت: ائْتِ حاتماً فقولي له: إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا، ولم يعلموا بمكانك فأرسل إلينا بناب ننحرها ونقرهم، وبلبن نسقيهم، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك، فأتت الجارية حاتماً فصرخت به فقال حاتم: لبيك قريب دعوت، فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام، وتقول لك:إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، فأرسل إليهم بناب ننحرها، ولبن نسقيهم، فقال: نعم وأبي.

ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنتين من عقالهما، ثم صاح بها حتى أتى الخباء فضرب عراقيبهما، فطفقت ماوية تصيح وتقول: هذا الذي طلقتك فيه، تترك ولدك وليس لهم شيء، فقال حاتم:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد ... كذاك الزمان بيننا يتردد
يرد علينا ليلة بعد يومها ... فلا نحن ما نبقى ولا الدهر ينفد
لنا أجل إما تناهى أمامه ... فنحن على آثارها نتورد
بنو ثعل قومي فما أنا مدع ... سواهم إلى قوم وما أنا مسند
بدرئهم أغشى دروء معاشر ... ويحنف عني الأبلخ المتعمد
فمهلاً فداك اليوم أمي وخالتي ... فلا يأمرني بالدنية أسود
على حين أن ذكيت واشتد جانبي ... أسام التي أعيت إذا أنا أمرد
فهل تركت قبلي حضور مكانها ... وهل من أتى ضيماً وخسفاً مخلد
ومعتسف بالرمح دون صحابه ... تعسفته بالسيف والقوم شهد
فخر على حر الجبين وذا ده ... إلى الموت مطرور الوقيعة مذود
فما رمه حتى أزحت عويصه ... وحتى علاه حالك اللون أسود
فأقسمت لا أمشي على سر جارتي ... يد الدهر ما دام الحمام يغرد
ولا أشتري مالاً بغدر علمته ... ألا كل مال خالط الغدر أنكد
إذا كان بعض المال رباً لأهله ... فإني بحمد الله مالي معبد
يفك به العاني ويؤكل طيباً ... ويعطى إذا ضن البخيل المصرد
إذا ما البخيل الخب أخمد ناره ... أقول لمن يصلى بناريَ أوقدوا
توسع قليلاً أو يكن ثم حسبنا ... وموقدها البادي أعف وأحمد
كذاك أمور الناس راض دنية ... وسام إلى فر العلا متورد
فمنهم جواد قد تلفت حوله ... ومنهم لئيم دائم الطرف أقود
وداع دعاني دعوة فأجبته ... وهل يدع الداعين إلا اليلندد

الإيثار على النفس:

ويروي ملحان ابن أخي ماوية، امرأة حاتم الطائي، قال: قلت لعمتي ماوية: حدثيني ببعض عجائب حاتم، فقالت: كل أمره عجب، فعن أية تسأل؟ قلت: حدثيني ما شئت. قالت: أصابت الناس سنة، فأذهبت الخف والظلف، فإني وإياه ليلة قد أسهرنا الجوع، قالت فأخذ عدياً وأخذت سفانة، وجعلنا نعلّلهما حتى ناما.

ثم أقبل إليَّ يحدثني ويعلّلني بالحديث كي أنام، فرققت له لما به من الجهد، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي أنمت؟ مراراً، فلم أجب، فسكت فنظر في فتق الخباء، فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟.

فقالت: يا أبا سفانة، أتيتك من عند صبية يتعاورون كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضريني صبيانك، فو الله لأشبعنهم، قالت ماوية: وقمت مسرعة فقلت: بماذا يا حاتم؟ فو الله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعن صبيانك مع صبيانها هذه الليلة.

فلما جاءت المرأة بصبيانها قام حاتم إلى فرسه فذبحها، ثم قدح ناراً، ثم أجَّجها، ثم دفع إليها شفرة فقال: اشتوي وكلي، ثم قال: أيقظي صبيانك، قالت: فأيقظتهم، ثم قال: والله إن هذا اليوم تأكلون وأهل الصرم حالهم مثل حالكم، فجعل يأتي الصرم بيتاً بيتاً فيقول: انهضوا عليكم بالنار، قالت: فاجتمعوا حول تلك الفرس وتقنع بكسائه فجلس ناحية، فما أصبحوا ومن الفرس على الأرض قليل ولا كثير، إلا عظم أو حافر، وإنه لأشد جوعاً منهم، وما ذاقه، إنه الإيثار على النفس.

تلك كانت أخلاقه، وتلك كانت صفاته وسجاياه، وذلك كان سخاؤه وكرمه، وبذلك استحق أن يكون مضرب الأمثال.

جود هرم بن سنان وكرمه:

هو هرم بن سنان أبي حارثة المري، من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وهو من أجواد العرب في الجاهلية، وهو ممدوح الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، اشتهر هو وابن عمه: الحارث بن عوف بن أبي حارثة بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان.

السخاء والإيثار:

وجاء في أمثال العرب قولهم: أجود من كعب بن مامة، هو كعب بن مامة ابن عمرو بن ثعلبة الإيادي، وكان مامة أحد الثلاثة الذين يضرب بهم المثل في الجاهلية، ومن حديث كعب بن مامة هذا:

أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط، فضلوا الطريق فتصافنوا ماءهم، وهو أن توضع حصاة في الإناء الذي يشربون به الماء ثم يصب فيه من الماء ما يغمر الحصاة، وتلك الحصاة هي المقلة فيشرب كل إنسان بقدر واحد.

والمقلة: حصاة القسم، توضع في الإناء إذا قل الماء في السفر، ثم يصب عليه الماء حتى يغمر الحصاة، فيعطى كل سهمه، ويقال تصافن القوم الماء بالمقلة.

فقعد القوم للشرب، فلما دار الإناء الذي فيه الماء، فانتهى إلى كعب بن مامة فأبصر النمري يحدد النظر، ولسان حاله يريد قسم كعب بن مامة، فآثره بنصيبه من الماء، وقال كعب للساقي: اسق أخاك النمري.

فشرب النمري نصيبه ونصيب كعب بن مامة اليوم الأول من الماء، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر، فتصافنوا بقية مائهم، فنظر إليه النمري كنظره بالأمس، فقال كعب بن مامة كقوله بالأمس للساقي: اسق أخاك النمري، فشرب النمري نصيب كعب بن مامة ونصيبه.

ولما أراد القوم أن يرحلوا، قالوا لكعب بن مامة ارتحل، فلم يكن به قوة للنهوض من شدة العطش، وكانوا قد اقتربوا من الماء، فلم يستطع كعب الرد لما به من الضعف، فلما يئسوا منه تركوه وحيداً في الصحراء، فخيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه فمات عطشاً، فقال أبوه مامة يرثيه:

ما كان من سوقة أسقي على ظمإ ... خمراً بماء إذا ناجودها برد
من ابن مامة كعب حين عيا به ... ذوو المنية إلا حرة وقد
أوفى على الماء كعب ثم قيل له ... رد كعب إنك وارد فما ورد

إنها الكرامة والأخلاق الحميدة والإيثار على النفس، إنه السخاء الذي خلد ذكر صاحبه في سجل الخالدين، وأين نحن من تلك الأخلاق، والإسلام يحثّنا عليها

ولنا فيها من الأجر والثواب العظيم الله عالم به؟ والله يقول في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

ولقد فهم أخلاق الإيثار أولئك الأنصار، وطبقوه بفضل كرم الله عليهم وتوفيقه ، في الواقع العملي، بفضل الله وتوفيقه أن أكرمهم بنور الإيمان، وجعلهم إخوة ، ألف بين قلوبهم بفضله وعونه وتوفيقه، والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ بها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

ولم يعرف تأريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث الأنصار، واستقبالهم للمهاجرين المؤمنين بهذا الحبّ الكريم،وبهذا البذل السخي وبهذه المشاركة الرضية، وقد خلد الله تلك الخصال العظيمة في كتابه العزيز، حيث يقول في شأن الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

فكانوا ﷺ يتسابقون إلى الإيواء، واحتمال الأعباء حتى ليروى أنه من كثرة ما يتزاحمون رغبة في رضاء الله سبحانه وتعالى، لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، أي بالاقتراع ،لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين من الأنصار أكثر من المهاجرين.

وكانوا رضوان الله عليهم، لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، مما ناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع، ومن مال يختصون به من فيء، فلا يجدون في صدورهم شيئاً، لا حسداً ولا ضيقاً، وإنما كانت أنفسهم مطمئنة، وقلوبهم مملوءة إيماناً وطهارة.

تلك هي الصورة الوضيئة الصادقة، التي تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، ولقد تفرَّدت تلك المجموعة من البشر بتلك الخصال والصفات التي جعلتهم نماذج للاقتداء، إذ غيّر الإيمان سلوكياتهم وطبعهم بطابع السمو البشري، فأحبوا الإسلام وأحبوا رسول الإسلام، وأحبوا المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم الذين

هاجروا إليهم فراراً بدينهم، وأنسوهم بمعاملتهم النموذجية، ما فقدوا من المال والأهل والولد، بسبب طغيان أهل مكة المكرمة.

إن معاملة الأنصار للمهاجرين تعتبر قمة في سبيل الترابط الإيماني، الذي يمثل التلاحم والترابط المبني على أساس إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، وإنه لا يصلح آخر هذه الأمة التي جعلها الله أمة وسطاً إلا بما صلح به أولها.

فأين نحن اليوم وقد تهيأت جميع الوسائل، وتمهدت لنا جميع السبل، وقد واكب ذلك كثير من الاكتشافات والاختراعات، والرقي الحضاري، وكان من المنطق أن يصاحب تقارب الأشباح بتآلف الأرواح، وكأني بلسان حالنا يقول: تحسبنا جميعاً وقلوبنا شتّى.

ومما يحكى من إيثار المهاجرين، ما روي في الصحيح، أن النبي ﷺ دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

السخاء والكرم:

ما هذا السخاء والكرم، الذي أبداه يزيد بن عبد المدان، إنه الشرف والسؤدد الذي بقيت تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، وقد حبّذ الإسلام تلك الأخلاق النبيلة، وحث عليها، فقال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

إنه نداء عام للذين آمنوا، في كل وقت وفي كل جيل،يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم تشمل ما كسبته أيديهم من الحلال الطيب، ومما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغيره، ومما يخرج من الأرض ويشمل جميع المعادن مثل الذهب والفضة والحديد والنحاس والألماس، والزئبق والبترول والغاز، ومن ثم فالنص يستوعب جميع أنواع المال، ما كان معهوداً على عهد النبي ﷺ، أو ما اُستجد بعد ذلك ،فالنص شامل جامع لا يندّ منه مال مستحدث في أي زمان.

وقد وردت الروايات بسبب النزول لهذه الآية ابتداء، نذكره لاستجلاء الأمر واستحضار حقيقة الحياة التي كان القرآن يواجهها،وحقيقة الجهد الذي بذله لتهذيب النفوس ورفع مستواها إلى مستوى سموه وعلوه.

أخرج ابن جرير الطبري بإسناده ،عن البراء بن عازب ﷺ، قال: نزلت الآية الآنفة الذكر في الأنصار،كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخيل: (أي قطع ثماره)، أخرجت من حيطانها وبساتينها البسرفعلقوه بحبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل منه فقراء المهاجرين، فيعمد الرجل منه إلى الحشف (أي أردأ التمر) فيدخله مع قناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك تنبيهاً وتهذيباً وإرشاداً: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن طريق آخر عن البراء بن عازب ﷺ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفّة ليس لهم طعام.

فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه فيسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير ، يأتي بالقنو الحشف (أردأ التمر)، فيأتي بالقنو قد انكسر لم تستقم حاله إذ يتحول أكثره إلى حشف فيعلقه، ومنه المثل العربي الذي يقول: (أحشف وسوء الكيل).

فنزلت الآية:﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧]، ما هذه الأخلاق الرفيعة التي جاء بها القرآن الكريم، ليأخذ الناس للتي هي أقوم، يأخذ بأيديهم إلى ما فيه تطهير قلوبهم من البخل، ونفوسهم من الشح، وأيديهم من الإمساك والغل، قال الله تبارك وتعالى:﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورٗا﴾[سورة الإسراء: ٢٩].

وليتصور الإنسان حين يتيمم الخبيث منه ينفق، أنه هو الذي أهدي له مثل ذلك، أي مثل ما أعطى من الخبيث أيرضى به ، فإذا قبله فإنما يقبله على مضض،وحياء إنه الأدب العالي الرفيع ، قال البراء فبعد نزول الآية، تغيرت حالة القوم، فإذا بالرجل بعد ذلك يأتي بأفضل ما عنده.

والأنصار نماذج في الجود والسخاء، والإيثار على النفس، وقد أثنى الله عليهم في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

جود الصحابة وكرمهم:

لقد جاء الإسلام والناس تعصف بهم العواصف أشتاتاً وفرادى، القوي يأكل الضعيف، فازداد الغني غنى، والفقير فقراً، وبينما الناس في تلك الظلمات من الجهل والحيرة، إذا بنور الإيمان يضيء الطريق لمن أراد أن يكون على بصيرة من الأمر، فجاء الإسلام ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلم المخلوق للمخلوق، إلى عدل الخالق،فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم.

كرم الأنصار:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

بيوت زوجات رسول الله:

ومن إيثار الواحد منهم على غيره منهم ما **رواه البخاري** عن أبي هريرة ﷺ، قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، يسأل إن كان عندهن شيء من الطعام، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «**ألا رجل يضيف هذا الليلة** رَحِمَهُ اللَّهُ»؟.

ضيف الرسول:

فقام رجل من الأنصار، قيل هو أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري، الصحابي الجليل الشجاع البطل، أحد الرماة المشهورين في الجاهلية والإسلام، ولما ظهر الإسلام كان من كبار أنصاره، فشهد العقبة وبدراً وأُحُداً وسائر المشاهد، وكان جهير الصوت.

وفي الحديث: (**لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**)، وكان رديف رسول الله ﷺ يوم خيبر، فكان ذلك تقديراً من رسول الله ﷺ لأبي طلحة، وتشريفاً له ﷺ.

أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني جهد، فأرسل الرسول إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: (**ألا رجل يضيف هذا الليلة** رَحِمَهُ اللَّهُ)، فقام أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله، فذهب أبو طلحة إلى أهله، فقال:

هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، فقال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، حتى يرى الضيف بأنك تصلحينه فأطفئيه، وأريه أنّا نأكل فقعدوا يأكل الضيف، وباتوا على الطوى.

ما هذه الأخلاق العظيمة، التي جاءت تأكيداً، وتهذيباً لتلك الأخلاق، التي كان عليها عرب الجاهلية، فأكدها الإسلام، وهذبها ودعا إلى إفراد الله بها، لا يريدون مما يأتون أو يذرون إلا وجه الله وتبعاً لأوامره سبحانه وتعالى، فوفقهم وأعانهم على ذلك، وأخلف عليهم خيراً مما أنفقوا.

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر الأنصار في المدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه (بير حاء)، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]. قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليَّ (بير حاء)، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

لقد فقه المسلمون الأوائل وقتها معنى هذا التوجيه الإلهي ،وحرصوا على أن ينالوا البر، وهو جماع الخير، بالنزول عما يحبون، وببذل الطيب من المال سخية به نفوسهم ، في انتظار ما هو أكبر وأفضل عند الله.

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: إحبس الأصل وسبّل الثمرة.

وعلى هذا الدرب سار الكثير منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البرّ كله، وإلى جماع الخير ومقاليده، يوم هداهم الله إلى الإسلام، ونوّر قلوبهم بنور الإيمان، وقد تحرروا بهذه التلبية من استرقاق المال ومن شح النفس، وحبّ الذات، ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء.

من أكرم الثلاثة ؟

يحكى أن ثلاثة نفر تماروا في الأجود، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال الثاني: أسخى الناس قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، فقال الثالث: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي والذي يقول فيه الشاعر:

إذا ما رايـــة رفـعـت لمجـد تلقَّاهـا عـرابـــة بـاليـمـيـن

فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه ، يسأله حتى ننظر بما يعود به، فنحكم على العيان.

فقام صاحب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فوافاه وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل منقطع ، قال: فأخرج عبد الله بن جعفر رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز،وأربعة آلاف دينار.

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة، فوجده نائما ، فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟. قال ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل (مكان تجمعها)، فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها، وعبداً وامض لشأنك، قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها سروراً بفعلها، فقد اقتبست هذا الخلق النبيل منه.

ومضى صاحب عرابة الأوسي، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومنقطع به، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسر ى، وقال: أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل : والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال عرابة: إن أخذتهما وإلّا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ وإن شئت فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى، ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد من الثلاثة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقيس بن سعد بن عبادة، وعرابة الأوسي، فحكموا بأن عرابة الأوسي أسخى الثلاثة، لأنه أعطى على جهده، وأفضل الصدقة جهد المقلّ.

ويحكى أن رجلاً من قريش، قدم من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض، فقال القرشي لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصبَّ في حجره أربعة آلاف درهم، فهمَّ أن يقوم فلم يقدر من الضعف، فبكى، فقال له القرشي: ما يبكيك لعلك احتقرت واستقللت ما دفعناه إليك؟.

فقال الأعرابي: لا والله ما احتقرت ولا استقللت، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

جذور السخاء:

إن أخلاق السخاء والكرم، لها جذور موغلة في الزمن، يتوارثها الأبناء عن الآباء، ويتنا قلها الأجيال على مر الزمن ، وكانت تسير مع الفطرة من غير تكلف، وكان الكريم يكرم ضيفه بأعز ما يملك، ففي الزمن الجاهلي كان العربي يكرم الضيف، مكسبة للحمد والثناء، ودفعاً للبلاء ، أما في الإسلام فيكرم المؤمن الضيف ابتغاء وجه الله لا رغبة في الجزاء والشكر، قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [سورة الإنسان: ٨-٩].

كرم قيس بن سعد بن عبادة:

ومما يحكى أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي سئل : هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا ما أكلنا من التي نحرت بالبارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت.

فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، كل يوم، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته،وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قائلاً: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا، فهذا أسخى مني وأكرم.

وروي أن الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي أمير كندة في الجاهلية والإسلام، أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً، وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة.

وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال عليّ دين كذا وكذا، فدخل الصديق الدار، وأخرج إليه ما كان عليه من الدين، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلّا تعلّلت حيث شقت عليك الإجابة؟ فقال: أنا أبكي لأني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

كرم عبد الله بن أبي بكر:

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب، وقالت: تنحوا جانباً عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإني امرأة عزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال : يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أمست حتى كثر خطابها.

وقيل كان ينفق على أربعين داراً من جيرانه، عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، وقيل كان يعتق في كل عيد مائة مملوك، والله أعلم.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة، استبطأ إخوانه وأصدقاءه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان والأصدقاء من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان ليس عنده مال فهو منه في حِلّ، فتزاحم الناس على باب داره بالعشي، لكثرة الزائرين له.

وكان عبد الله بن العباس رضي الله عنهما من الأجواد، والكرماء الأسخياء أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، وقال: يا ابن عباس،إن لي عندك يداً، وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره فلم يعرفه.

فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفا بفناء زمزم، وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك فضللتك بفضل كسائي حتى شربت.

فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال الغلام: عندي مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم، فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده.

المتح استخراج الماء من البئر، والماتح هو الذي يستخرج الدلو من البئر، متى امتلأ بالماء، والماتح هو الذي يمضي عليه وقت طويل حتى ينتهي، والمتاح من الخيل هو الذي يقطع المسافات الطويلة في سيره.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك تبركاً بك، وإن أمه ماتت، فقال له عبد الله بن العباس: بارك الله لك في الهبة وآجرك الله على المصيبة.

ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة، فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة.

فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتماً بيوم ما ذكرته العرب، فأنت أكرم وأسخى من حاتم.

وحبس معاوية بن أبي سفيان عن الحسين بن علي بن أبي طالب صلاته، فقيل للحسين، لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن العباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف درهم.

فقال الحسين بن علي: وأين تقع ألف ألف درهم من عبد الله بن العباس، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ،وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية بن أبي سفيان صلاته عنه، وضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة الف درهم، فلما قرأ عبد الله الكتاب انهملت عيناه بالدموع ، وقال: ويلك يا معاوية، أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين بن علي يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال،ثم قال لوكيله:

احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة، ودواب وأخبره أني شاطرته ما أملك، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثقلت والله على ابن عمي، وما أحسب أنه يسمح لنا بهذا كله، تلك مواقف الرجال العظماء، الأجواد الأسخياء،الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوقّ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون، قال الشاعر:

يقيناً ما نخاف وإن ظننا ... به خيراً أراناه يقينا
نميل على جوانحه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر من هما كرماً ولينا